سياق السورة القرآنية وأثره فى تفسير النص وبيان تماسكه
قراءة نحوية فى سورة (ق)

الدكتور مصطفى عراقى حسن (*)

أولا : المقدمة :

تمثل السورة القرآنية نصا مستقلا داخل سياق أكبر هو النص القرآنى كله، فلئن كان القرآن الكريم مجازه مجاز السورة الواحدة على ما قال ابن السراج [1] لقد بدت كل سورة من سوره فنا مستقلا ، وقرآنا معتبرا كما لاحظ الزركشى.[2]

وقد عنى العلماء بالنظر فى سياق السورة الواحدة ، من خلال تأملهم أسلوب القرآن الكريم فى نظمه وترتيبه ، يقول الرازى: «ومن تأمل فى لطائف نظم هذه السورة (يعنى سورة البقرة) وفى بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك» [3]

بهذا يتجلى ترتيب الكلمات والجمل وجها من وجوه إعجاز القرآن فى أسلوبه.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى: «كان القرآن فى نظمه وتركيبه على الأصل الذى أومأنا إليه نمطا واحدا فى القوة والإبداع ، ولا تقع منه على

(*) مدرس بقسم النحو والصرف والعروض.

(١) ابن السراج : الأصول فى النحو : 1 : 401

(٢) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن : 1 : 36

(٣) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن : 3 : 370 ، والبقاعى : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور 1:9 .

لفظ واحد يخل بطريقته ما دامت تنعطف على جوانب هذا الكلام الإلهى وما دام فى موضعه من النظم والسياق [١].

فأردت فى هذا البحث دراسة السياق فى سبيل الكشف عن أثره فى تفسير السورة القرآنية وبيان وحدتها وتماسك أجزائها من خلال التأمل النحوى فى سورة ق .

مفهوم السياق (النظم):

يدل السياق فى اللغة على التتابع ، ويرتبط بالحديث والكلام ؛ فيدل على معنى السرد : فمن ذلك قولهم : هو يسوق الحديث أحسن سياق ، وفى المثل : إليك يساق الحديث . وجئتك بالحديث على سوقه : على سرده . [٢]

وعبر عنه علماؤنا بمصطلح النظم ، والمراد بالنظم الترتيب بين الكلمات والجمل والفقرات فى النص الواحد ، والترتيب يقتضى تحقيق العلاقات النحوية بينها ؛ لأنه «لانظم فى الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك» [٣]

وكذلك استعمله الشاطبى ، فالسياق عنده : «اعتبار من جهة النظم الذى وجدنا عليه السورة ؛ إذ هو ترتيب بالوحى لا مدخل فيه لآراء الرجال».[٤]

والمراد بالترتيب هنا ترتيب الجمل ، وهو ما يسميه عبد القاهر بالسرد، حيث أوجب على الناظم أن : «ينظر فى الجمل التى تسرد» [٥]

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 244 ، وقد صرح البقاعى ، بهذا النوع من الإعجاز حين قال : «إن فى كل آية معنى تنتظم به بما قبلها ومعنى تتهيأ به للانتظام بما بعدها، وبذلك كان انتظام الآى داخلا فى معنى الإعجاز» (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور 1:235)

(٢) الزمخشرى : أساس البلاغة (س و ق)

(٣) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز : 55

(٤) الشاطبى : الموافقات فى أصول الشريعة : 3 : 310

(٥) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز : 82

كذلك أوجب الشاطبى على المتفهم للقرآن «الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها ، لا ينظر فى أولها دون آخرها ولا فى آخرها دون أولها ؛ فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض» (١)

فكان على الباحث فى قضية من قضايا القرآن أن يفهمها عبر النظر فى النص بأكمله بصفته بناء واحدا.

وإلى هذا المعنى ذهب ستيف أولمان فقال : «وكلمة السياق CONTEXT قد استعملت حديثا فى عدة معان مختلفة، والمعنى الوحيد الذى يهم مشكلتنا الحقيقية ، هو معناها التقليدى أى: النظم اللفظى للكلمة وموقعها من ذلك النظم بأوسع معانى هذه العبارة ؛ إن السياق على هذا التفسير ينبغى أن يشمل - لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب - بل والقطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغى أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات» (٢)

تلاحظ من هذا اتفاق رؤية العلماء العرب مع رؤية المعاصرين فى نقاط منها :

١ - أن السياق هو النظم اللفظى.

٢ - أنه يشمل النظر فى النص كله ولا يقف عند حدود الكلمة ولا الجملة.

قيمة وحدة السياق :

صاغ الطبرى قانونا يوضح أهمية مراعاة وحدة السياق فى فهم القرآن الكريم، فقال «إلحاق معنى بعض ذلك ببعض أولى ما دام الكلام متسقة معانيه

---

(١) الشاطبى : الموافقات : 3 : 390

(٢) ستيف أولمان : دور الكلمة فى اللغة : 61

على سياق واحد، إلا أن تأتى دلالة على انقطاع بعض ذلك من بعض ، فيعدل به عن معنى ما قبله» (١)

يقرر بهذا أن وحدة السياق أصل لا يعدل عنه إلا بدليل.

وللسياق فى التراث العربى قيمة جليلة ، على مستوى بناء النص وتفسيره:

1 - السياق وبناء النص :

أدرك النحاة قيمة السياق فى تحقيق الترابط بين أجزاء النص ، من خلال التماس العلاقات النحوية بينها ، يقول الدكتور تمام حسان «الكشف عن العلاقات السياقية (أو التعليق كما يسميه عبد القاهر) هو الغاية من الإعراب، وقد بين عبد القاهر أن فائدة التعليق هى : أن يأخذ الكلمات بعضها بحجز بعض . (٢)

وتكشف مراعاة سياق الكلام عن تحقيق انسجام النص الواحد ، يقول ابن عبد السلام : «إذا كان للاسم الواحد معان حُمِل فى كل موضعٍ على ما يقتضيه ذلك السياقُ كيلا ينبتر الكلام، وينخرم النظام» (٣)

فدل ذلك على أن مراعاة السياق وسيلة مهمة من وسائل الكشف عن وحدة النص، فإن «من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ويتشبث بعضه ببعض لئلا يكون مقطعا مُنْبتِرًا» (٤)

وبهذا تتجلى قيمة السياق فى تحقيق هذه الغاية الشريفة.

كذلك أدرك علماء اللغة المحدثون قيمة السياق فى ترابط النص

---

(١) الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن (دار المعارف) 8 : 524

(٢) الدكتور تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها : 181 ، وعبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز 4

(٣) العز بن عبد السلام : الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز : 221

(٤) السابق : 220

وتماسكه ، يقول جون لاينز : «إن الوحدات التى يتكون منها النص جملا كانت أم غيرَ جمل ليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها البعض فى سلسلة، إنما ينبغى ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق، وعلى النص فى مجمله أن يتسم بسمات التماسك والترابط» (١)

2 - السياق وتفسير النص :

مراعاة سياق الكلام وسيلة مهمة من وسائل التفسير ، وواجب من آكد واجبات المفسر ، يقول الزركشى : «ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذى سيق له) (٢)

ومراعاة السياق تفيد فى بيان كثير من المسائل ، مثل :

١ - تفسير الضمير :

يقول ابن معطى : «والذى يفسره سياق الكلام كقولك : من كذب كان شرا له» (٣)

المعنى : كان الكذب شرا له ودل عليه لفظ الفعل؛ ولهذا قال : سياق الكلام» (٤)

2 - تقدير العنصر المحذوف :

جعل العلماء ما يدل عليه السياق دليلا من أدلة تقدير المحذوف، ومثلوا لذلك بالآية : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

---

(١) جون لاينز : اللغة والمعنى والسياق : 219

(٢) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن : 1 : 320

(٣) ابن معطى : الفصول الخمسون : 227

(٤) السابق : هامش 1

(سورة يوسف : ٣٧). يقول ابن عبد السلام : تقديره : تركت اتباع ملة قوم بدليل مقابلته بقوله ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ﴾ (سورة يوسف : ٣٨) [١].

كما أوجبوا على المفسر مراعاة ملاءمة التقدير للسياق فقال «لا يقدر فى القرآن من المحذوفات إلا أحسنها وأشدها موافقة وملاءمة للسياق» [٢].

3 - تحديد المعنى :

للسياق أثر بارز فى تحديد المعنى ، اتخذه المفسرون قرينة لترجيح معنى النص ، فـ «إذا احتمل الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى، وإذا كان للاسم الواحد معان حمل فى كل موضع على ما يقتضيه ذلك السياق» [٣].

4 - معرفة أغراض الأساليب :

يعرف الغرض الأنسب للأسلوب بالنظر فى السياق الوارد فيه ، يقول ابن عبد السلام: «كل صفة وقعت فى سياق المدح كانت مدحا، وكل صفة وقعت فى سياق الذم كانت ذما، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (سورة الدخان : ٤٩) أى الذليل المهان لوقوع ذلك فى سياق الذم، وكذلك قول قوم شعيب ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (سورة هود : ٨٧) أى : السفيه الجاهل - فى زعمهم - لوقوعه فى سياق الإنكار عليه. [٤]

وبهذا يتجلى السياق أصلا عظيما من أصول التفسير ، يقول ابن عبد السلام: «السياق مرشد إلى تبيين المجملات وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات وكل ذلك يعرف بالاستعمال» [٥]

---

(١) العز بن عبد السلام : الإشارة إلى الإيجاز : 6

(٢) السابق : 220

(٣) السابق

(٤) العز بن عبد السلام : الإمام فى بيان أدلة الأحكام : 159

(٥) السابق

مستويات السياق القرآنى :

عنى علماء الأصول بالنظر فى مستويات السياق القرآنى على النحو التالى:

أولاً : السياق الداخلى :

وهو أنواع متعددة ، بغير تعارض بينها ، إذ يمثل كل نوع منها اعتبارا ما لا يلغى الاعتبارات الأخرى.

١ - سياق النص القرآنى بكامله :

رأيت كيف لاحظ النحاة وحدة النص القرآنى كما قرر ابن السراج وقد عنى الأصوليون بهذه القضية، يقول الشاطبى: القرآن الكريم بجميع سوره كلام واحد أى يتوقف فهم بعضه على بعض بوجه، وذلك أنه يبين بعضه بعضا؛ حتى إن كثيرا منه لا يفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير سورة أخرى» (١)

٢ - سياق السورة :

لاحظ العلماء أن للسورة الواحدة سياقا خاصا حيث يتألف من سور مفصول بينها معنى وابتداء ، يعرف به انقضاء السورة وابتداء الأخرى «وبهذا الاعتبار فإن» سورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم (٢).

أرأيت كيف أدى اختلاف جهة النظر إلى عد القرآن كلاما واحدا يفسر بعضه بعضا، كما بين أن السورة من القرآن كذلك كلام واحد، يحقق مقصود السورة، دون تعارض بين الجهتين.

---

(١) الشاطبى : الموافقات : 3 : 314

(٢) السابق

٣ - سياق الفقرة :

كذلك لا تمنع وحدة النظم فى سورة البقرة من أنها «احتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها» (١).

فتمثل كل فقر فيها سياقا خاصا «فقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٧) (٢)

ويتكفل علم الوقف والابتداء ببيان بدايات الفقرات ونهاياتها.

٤ - سياق الآية :

قرر العلماء أن كل آية فن مستقل وقرآن معتبر (٣) ، وأفادوا من النظر فى سياق الآية، يقول الطبرى : «توجيه الكلام إلى ما كان نظيرا لما فى سياق الآية أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلا عنه» (٤)

ثانيًا : السياق الخارجي :

ويشمل :

١ - القراءات القرآنية الأخرى :

اتخذ المفسر القراءة دليلا على ترجيح معنى قراءة أخرى، يقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (سورة النساء : ٢٤) : «كتاب : مصدر مؤكد، أى كتب الله ذلك عليكم كتابا، وفرضه فرضا، ويدل عليه قراءة اليمانى: «كتب الله عليكم» (٥)

---

(١) السابق : 3 : 311

(٢) السابق

(٣) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن : 1 : 36

(٤) الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن (دار المعارف) 6:91

(٥) الزمخشرى : الكشاف 1:24

فاستدل على معنى الآية بسياق قراءة أخرى لها.

٢ - السنة النبوية :

إن السنة بيان للقرآن؛ فقد يكون للشيء فى القرآن «احتمال له ولغيره، فتبين السنة أحد الاحتمالين دون الآخر» (١).

٣ - أسباب النزول :

يقرر علماء الأصول أن : «معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن التى هى مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع» (٢).

وفرق العلماء بين السياقين اللغوى ، وغير اللغوى ، فجعلوا الأول مرتبطا بالألفاظ. أما الثانى فجعلوه متعلقا بأسباب النزول .

وقد صاغوا العلاقة بين السياقين بالقاعدة التالية : «ليست العبرة بخصوص السبب، إنما العبرة بعموم اللفظ» (٣).

إن السياقين قرينتان مهمتان كلاهما مفيد فى التفسير ، «وإذا فات بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل فى هذا النمط؛ فهى من المهمات فى فهم الكتاب بلا بد» (٤)

---

(١) الشاطبى : الموافقات 14:4 . ويقول الدكتور حبلص: «نصوص الشريعة المطهرة كما هو واضح عدت مع النص القرآنى وحدةً فى السياق اللفظى العام «(البحث الدلالى عند الأصوليين :50) والأولى أنها بالنسبة للقرآن سياق خارجى.

(٢) الشاطبى : الموافقات 258:3 ويبدو أن مصطلح السياق عند إطلاقه يشير إلى السياق الداخلى، أما السياق الخارجى فعبر عنه بمصطلح قرائن الأحوال ، يقول ابن عبد السلام فى المشترك اللفظى : إن كان فى السياق ما يعينه ويدل عليه حمل الكلام عليه ، وإن لم يكن فى السياق ولا فى قرائن الأحوال ما يدل عليه فهو مجمل (الإشارة إلى الإيجاز : 216)

(٣) السابق

(٤) السابق

ولكن الأصوليين «جعلوا دلالة قرينة السياق أقوى من قرينة السبب ؛ إذ السبب لا ينتهض بمجرده قرينة بخلاف السياق فإنه يقع به التبيين والتعيين» (١)

وقد بالغ الشيخ محمد عبده فى دعوته إلى العناية بترابط الآيات فاتهم «رواة الأسباب بأنهم يمزقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهى ويجعلون القرآن عضين متفرقة بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها عن بعض» (٢)

وهذا الاتهام يخلط بين اعتبارين :

الأول : نزول القرآن منجَّمًا ، وبهذا الاعتبار يستفاد من رواة الأسباب فى معرفة القرائن الحالة للآيات.

الثانى : ترتيب القرآن فى المصحف ، وهذا الترتيب توقيفى ، وبهذا الاعتبار يعنى العلماء بوحدة السياق ، والمناسبة بين الآيات والسور ، فهذا «اعتبار من جهة النظم الذى وجدنا عليه السورة ؛ إذ هو ترتيب بالوحى لا مدخل فيه لآراء الرجال» (٣)

بعد هذا العرض العام لمستويات السياق ، أتناول مستوى سياق السورة القرآنية موضحا قيمته لدى علماء القرآن.

سياق السورة القرآنية :

إن النظر فى سياق السورة الواحدة يعين الناظر فيها على التماس ترابط آياتها ، عبر تحديد أنواع الجمل وطرائق الربط بينها ، وسبيلا إلى معرفة المعنى الكلى للسورة ، وترجيح المعانى الجزئية التى تتواءم مع ذلك المعنى الكلى لها.

---

(١) الشوكانى : إرشاد الفحول فى تحقيق الحق من علم الأصول : 162

(٢) السيد رشيد رضا : تفسير المنار 11:2

(٣) الشاطبى : الموافقات 3 : 310

يقول الشاطبى : «اعتبار جهة النظم مثلا فى السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر ، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود ، كما أن الاقتصار على بعض الآية فى استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر فى جميعها ، فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها» (١).

ويمثل الشاطبى لذلك بقوله «فأما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام : ٨٢) فإن سياق الكلام يدل على أن المراد بالظلم أنواع الشرك على الخصوص ؛ فإن السورة من أولها إلى آخرها مقررة لقواعد التوحيد ، وهادمة لقواعد الشرك» (٢).

يقول الدكتور محمد حبلص: «تفسير معنى الظلم فى الآية ٨٢ من سورة الأنعام بالشرك فى ضوء السياق اللفظى العام للسورة ، وبالرجوع إلى الآيات السابقة واعتبار السورة كلها سياقا كاملا، ووحدة لغوية واحدة هو فهم رائد لمفهوم السياق المقالى» (٣).

ويشير الألوسى إلى عناية المفسرين بسياق السورة فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ قائلا : «المراد بالكتاب عند المحققين السورة الكريمة لا القرآن ؛ إذ هى التى صدرت بقصة زكريا - عليه السلام - المستتبعة لقصتها وقصص الأنبياء - عليهم السلام - المذكورين فيها » (٤).

كذلك يوضح النظر فى سياق السورة السر فى إيثار تركيب ما .

---

(١) السابق : 207

(٢) السابق

(٣) الدكتور محمد حبلص : البحث الدلالى عند الأصوليين : 47

(٤) الآلوسى : روح المعانى 16 : 74

يقول تعالى فى سورة الحجر- لإبليس: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

وقال فى سورة ص : ﴿ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾

يفسر الكرمانى سر اختيار الإضافة إلى ياء المتكلم فى النص الثانى وعدم استعماله فى النص الأول بأن الكلام فى سورة الحجر جرى على الجنس من أول القصة فى قوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾ و ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاه ﴾ و﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ كذلك قال : ﴿ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ .

وفى سورة ﴿ ص ﴾ تقدم ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ فختم بقوله : ﴿ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ (١).

ومن مظاهر إدراك المفسرين لوحدة السياق فى السورة الواحدة ، ملاحظة مناسبة فواتح السور وخواتمها (٢).

هذا ، وتختلف وحدة السياق عن الوحدة الموضوعية، أو الوحدة الفكرية للسورة، فليس من غرض السورة القرآنية أن تكون ذات موضوع واحد، يقول الزركشى : «إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعانى فى السورة الواحدة ، وفى الآى المجموعة القليلة العدد؛ ليكون أكثر لفائدته، وأعم لمنفعته ، ولو كان لكل باب منه قبيل، ولكل معنى سورة مفردة ، لم تكثر عائدته» (٣).

ليس الموضوع هو الذى يحقق للسورة وحدتها، فمن السور ما تناول موضوعا واحدا، ومنها ما تناول عدة موضوعات، يقول الشاطبى: «الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدا بكل اعتبار، بمعنى أنه أنزل فى قضية واحدة

(١) الكرمانى : البرهان فى توجيه متشابه القرآن : 118

(٢) انظر : الزركشى : البرهان فى علوم القرآن 1 : 236

(٣) السابق السابق 2 : 113

طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل ، وتارة يكون متعددا فى الاعتبار بمعنى أنه أنزل فى قضايا متعددة : كسورة البقرة وآل عمران» (١).

لكن تعدد القضايا لا يؤثر فى اتسام السور جميعا بالوحدة؛ فإن «سورة البقرة مثلا - كما يرى الشاطبى - كلام واحد باعتبار النظم» (٢).

إن السياق هو الذى يحقق للسورة وحدتها ، يقول الأستاذ سيد قطب: «إن لكل سورة من سور القرآن شخصية مميزة ، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حى مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو» (٣).

تتعدد الموضوعات فى السورة الواحدة ، فيصل السياق بين هذه الموضوعات ، حتى تتجلى متلاحمة متماسكة.

---

(١) الشاطبى : الموافقات 3 : 310

(٢) السابق

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ١ : 28

ثانيًا : التأمل النحوى للسياق فى سورة (ق) :

بين يدى السورة:

اسمها : سميت بـ (ق) لافتتاحها به كما تسمى أيضا بسورة الباسقات.

حروفها : قال النيسابورى : ألف وأربعمائة وسبعة وسبعون [١]، وعدها الفيروز آبادى: «ألف وأربعمائة وأربع وسبعون» . [٢]

كلماتها : ثلثمائة وخمس وسبعون.

آياتها : خمس وأربعون.

فواصلها : (ط ر ج د ظ ب)

وسورة ﴿ق﴾ من السور المكية ، نزلت بعد سورة المرسلات تتسم بما تتسم به السور المكية من خصائص موضوعية وأسلوبية.

فهى تتناول موضوعا واحدا هو تقرير حقيقة البعث، وعرض موقف المنكرين له وإقامة الحجة.

ويثبت النظر فى هذه السورة بطلان ما ذهب إليه طه حسين من اتهام القسم المكى بأنه يتفرد بالعنف والشدة ، والقسوة والحدة، والغضب والسباب ، والوعيد والتهديد ، وبأنه يمتاز بالهروب من المناقشة وبالخلو من المنطق ، وتقطع الفكرة واقتضاب المعانى وقصر الآيات ، وأما القسم المدنى فهو هادئ لين وديع مسالم، يقابل السوء بالحسنى، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان، أما أفكاره فهى منسجمة متسلسلة.[٣]

وسوف ترى أن السورة الكريمة - وهى من القسم المكى - مناقشة

---

(١) النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان 26 : 98

(٢) الفيروز ابادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز 1 : 437

(٣) انظر : محمد عرفة : نقض مطاعن فى القرآن الكريم 5 - 7

موضوعية لمذهب العرب فى إنكار البعث . والرد عليهم بالحجة العقلية، والبرهان القاطع.

وقد لاحظ العلماء أن السورة تناولت هذا الموضوع فى مجموعة من الفقرات ، يقول الفيروز آبادى: مقصود السورة: إثبات النبوة للرسول ﷺ وبيان حجة التوحيد، والإخبار عن إهلاك القرون الماضية، وعلم الحق تعالى بضمائر الخلق وسرائرهم ، وذكر الملائكة الموكلين على الخلق ، المشرفين على أقوالهم ، وذكر بعث القيامة وذل العاصين يومئذ ومناظرة المنكرين بعضهم بعضا فى ذلك اليوم، وتغيظ الجحيم على أهله، وتشرف الجنة بأهلها، والخبر عن تخليق السموات والأرض، وذكر نداء إسرافيل بنفخة الصور ، ووعظ الرسول ﷺ الخلق بالقرآن المجيد» (١).

كما أنها تتخذ ضرب المثل ، والإشارة إلى القرون الماضية وسيلة من وسائل التعبير. يقول عروة بن الزبير : «كل سورة فيها ضرب المثال وذكر القرون الماضية فهى مكية (٢).

من أجل هذا كانت أنسب السور لتقوم مقام الخطبة ، فكان الرسول ﷺ كثيرا ما يخطب بها يوم الجمعة حتى قالت أم هشام بنت حارثة بن النعمان: «ما أخذت ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلا عن لسان رسول الله ص يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس (مسلم : كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة، وأبو داود باب الرجل يخطب على قوس).

قال العلماء: وسبب اختياره ﷺ هذه السورة لما اشتملت عليه من ذكر البعث والموت والمواعظ الشديدة والزواجر الأكيدة (٣).

---

(١) الفيروز ابادى : بصائر ذوى التمييز 1 : 437

(٢) السابق : 1 : 106

(٣) العظيم آبادى : عون المعبود فى شرح سنن أبى داود 3 : 451

وكانت هذه الأسباب أيضا باعثا لي على اختيارها للكشف عن العلاقات النحوية بين جملها وفقراتها، على النحو التالي :

الفقرة الأولى : قضية البعث :

﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق ١ : ١٨).

﴿ ق ﴾ : تبدأ السورة بحرف من حروف التهجي، ويلجأ بعض المفسرين إلى أشياء لا تناسب السياق ؛ فمنهم من فسره بأنه جبل ، وهذا تفسير بعيد؛ إذ لا مناسبة لذكر الجبل ههنا، يقول ابن كثير : «وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، وعندي أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم.. وإنما أباح

الشارع الرواية عنهم فيما قد يجوزه العقل. فأما ما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل». (١)

ومنهم من حسبه إشارة إلى جملة ، هى : «قُضى الأمر» ، أو «قِفْ عند أمرنا ونهينا، كقول الشاعر:

قلت لها قفى فقالت قاف (٢)

أى إنى واقفة.

يقول ابن كثير : «وفى هذا التفسير نظر لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل عليه دليل ، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف» (٣)

ومنهم من حسبه اسما من أسماء الله الحسنى أو إشارة إلى اسم مثل قادر ، وقاهر وقريب ، وقاض ، وهو تكلف بعيد. لأن الحذف - على ما قرر النحاة - إنما يكون إذا دل عليه دليل، لهذا يتساءل ابن كثير : «ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف» ؟ (٤)

فكان سياق البيت دليلا على تأويل الحرف فى حين يستبعد هذا التأويل فى سورة ق لعدم دلالة السياق عليه.

ورآه فريق إشارة إلى بعض آيات السورة فهو يشير إلى قرب الله من عباده وبيانه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، أو إلى القلب، ودليله قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

والتحقيق أنه حرف من حروف الهجاء ، يدل على ذلك أمران :

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 4 : 198

(٢) هو للوليد بن عقبة ، وبليه : لا تحسبينا قد نسينا الإيجاف. انظر الفراء : معانى القرآن ، وابن جنى : الخصائص 1 : 30

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 4 : 118

(٤) السابق

الأول : أنه ورد في افتتاح السورة فكان مثل الم ، وحم ، ص ونون. على ما عهدتَ في كثير من افتتاح سور القرآن.

الثاني : كتابته على صورة حروف التهجي، ولو أريد به شيئا آخر لكتب ثلاثة حروف.

وتتجلى المناسبة الصوتية بين حرف التهجي وسورته ، بحيث لا يمكن أن يحل حرف محل حرف ، فأما سورة ق فإنها «مبنية على كلمة ذلك الحرف؛ فمن ذلك :

- أن السورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن ، ومن ذكر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مرارا ، والقرب من ابن آدم ، وتلقي الملكين، وقول العتيد ، وذكر الرقيب ، وذكر السابق ، والقرين ، والإلقاء في جهنم ، والتقدم بالوعد ، وذكر المتقين ، وإلقاء القلب ، والقرن ، والتنقيب في البلاد وذكر القتل مرتين ، وتشقق الأرض ، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل ، والرزق ، وذكر القوم ، وخوف الوعيد، وغير ذلك (١).

وثمة مناسبة بين صفات الحرف، وموضوع السورة ، وسر آخر، وهو أن كل معاني السورة مناسب ، لما في حرف القاف ، من الشدة والجهر ، والقلقلة ، والانفتاح» (٢)

وفي هذا توظيف معنوي للصوت اللغوي ، يحقق وجها من وجوه الاتساق في السورة الكريمة. كما يقول الكرماني «فالقصد للتوفيق بالألفاظ مع وضوح المعاني» (٣)

ومما يدل على ذلك كثرة حروف القلقلة في فواصل السورة، كالدال:

---

(١) الزركشي : البرهان في علوم القرآن 1 : 169

(٢) السابق

(٣) الكرماني : البرهان في توجيه متشابه القرآن : 184

﴿المجيد﴾ ، والباء ﴿عجيب﴾ ، والجيم ، ﴿مريج﴾ والطاء ﴿لوط﴾ ، فيكمل القاف حروف القلقلة المجموعة فى قولنا (قطب جد).

والوقف على ق تام على قول من قال هو اسم للسورة ، والتقدير : اتل ﴿ق﴾.

﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ الواو للقسم ، الغرض منه التنويه بشأن القرآن بما يناسب وصفه بالمجيد؛ لأن القسم لا يكون إلا بعظيم . وفى هذا مناسبة ظاهرة؛ لأن «ق» حرف من الحروف التى يتألف من مثلها القرآن.

واختلف النحاة فى جواب القسم على أقوال :

الأول : أنه مذكور ، وبحث أصحاب هذا المذهب عن الجواب فى السورة، غير عابئين ببعده عن القسم ؛ لأنهم رأوا أن العلاقة بين الجواب والقسم لا تتأثر بالفصل بجمل كثيرة، وذهبوا فى البحث عنه مذاهب.

المذهب الأول : أنه وارد فى السورة نفسها ، على آراء:

١ - رأى الأخفش : أن الجواب هو قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [1] أى لقد علمنا ، وحذفت اللام لما تطاول الخطاب . كما فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ (سورة الشمس : ٩)

٢ - رأى ابن كيسان : أن جوابه : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾

٣ - رأى نحاة الكوفة : أنه ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ، والمعنى عندهم: لقد عجبوا.

٤ - اختيار محمد بن على الترمذى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾

٥ - وقيل : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾

---

(١) الأخفش : معانى القرآن 2 : 522

يقول أبو حيان : وهذه كلها أقوال ضعيفة ، ويرجع سبب ضعفها إلى الفصل بين القسم وجوابه ضعيف. (١)

المذهب الثانى : أن الجواب محذوف لدلالة نص السورة عليه، وتقديره : «لتبعثن فى يوم القيامة». على ما دل عليه سياق الآيات.

يقول ابن كثير : «الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد. (٢)

وحذف جواب القسم صورة من صور تصرف التعبير القرآنى؛ حيث «يذكر جواب القسم تارة، وهو الغالب ، وتارة يحذفه كما يحذف جواب لو»(٣)

ولاحظ العلماء أن الحذف هنا يستدعى وجوها يذهب إليها الوهم لما فيه من التفخيم ، لهذا كان الحذف هنا أبلغ من الذكر؛ لأن الذكر يقتصر على وجه، والحذف يذهب بالوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم.

ومن المفسرين (٤) من يلتمس التقدير من سور أخرى من النص القرآنى، فقالوا هو كما صرح به فى قوله : ﴿ يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة يس : ١ -٣).

وفى صنيعهم هذا ما يشهد بإدراكهم لوحدة النص القرآنى.

وأرى أن الأولى تقديره من السورة نفسها ، ولا نلجأ إلى غيره ما دام فيها دلالة على الجواب المحذوف.

ويذهب ابن القيم إلى أنه «قد اتحد المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه ، وأنه حق من عنده ، ولذلك حذف

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط 8 : 120

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 4 : 199

(٣) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن : 170

(٤) انظر : الرازى : مفاتيح الغيب 28 : 128

الجواب، ولم يصرح به لما فى القسم من الدلالة عليه، أو لأن المقصود نفس المقسم به» (١)

﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ : تبدأ الجملة بأداة دالة على الإضراب، والإضراب هنا يفيد الانتقال، يقول العكبرى: «بل : للخروج من قصة إلى قصة» (٢)

وهذا الإضراب لا يعنى انقطاع النص، بل هو كما لاحظ الأستاذ سيد قطب تنبيه على بدء حديث كأنه جديد عن عجبهم واستكارهم لما جاءهم به رسولهم فى القرآن المجيد من أمر البعث والخروج (٣)

والإضراب الانتقالى يقتضى كلاما منتقلا منه إلى كلام أهم منه ، يقول الشنتمرى: «بل تكون للإضراب عن حديث، وأخذ فى حديث آخر ، وإن لم يكن معطلا للأول ولا شاكا فيه، وإنما ليأخذ فى غيره مما هو عنده أهم منه» (٤)

فدل ذلك على تقدير جملة محذوفة قبل (بل) ، على المتلقى أن يقدرها عبر النظر فى أسلوب القسم؛ فلما كان القسم بدون جواب لا يعتبر كلاما تاما تعين أن يقدر السامع جوابا تتم به الفائدة يدل عليه الكلام، وهذا من إيجاز الحذف ، وحسنه أن الانتقال مشعر بأهمية المنتقل فكأنه قيل : «والقرآن المجيد إنا أنزلناه لتنذر به الناس فلم يؤمنوا به بل عجبوا.

والغرض من الإضراب هنا الإنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن يخوفهم رجل منهم قد عرفوا أمانته وصدقه (٥).

واختلف فى الضمير واو الجماعة فى عجبوا على رأيين :

---

(١) ابن القيم : التبيان فى أقسام القرآن : 8

(٢) العكبرى : التبيان فى إعراب القرآن 2 : 1173

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن 6 : 3357

(٤) الشنتمرى : تحصيل عين الذهب 2 : 306

(٥) البحر المحيط 8 : 120

الأول أنه عائد على الكفار ، ولم يسبق له ذكر فى السورة، وسيأتى تفسيره بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وهو الأولى لمناسبته للسياق.

الثانى : أنه عائد على الناس جميعا . وهو بعيد عن سياق السورة.

ويبين تعليل إنكارهم بقوله : ﴿ أَن جَاءَهُم ﴾ ومعناه : «لأن جاءهم» ، ثم يفسر تعجبهم مفصلا جهة تعجبهم بقوله :

﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ : الفاء للتفصيل حيث ورد بعدها حكاية ما أجمل من تعجبهم وتفسير الضمير بعد الفعل «جاءهم» وحرف الجر «منهم» ، إذ صرح بالاسم الظاهر «الكافرون» بدلا من الضمير إظهارا للإشعار بتعنتهم فى هذا المقال، ثم التسجيل على كفرهم بهذا المقال ، وللشهادة على أنهم فى قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم.

وفى هذا عناية بذكر سبب كفرهم ، إذ أسند الفعل إلى فاعله ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ ولم يقل : «فقالوا» لتتحقق نسبة القول إلى قائله صراحة. ولبيان أن قولهم هذا ناشئ من كفرهم.

وجاءت الفاء للربط بين الجملتين لوقوع التالية بعد السابقة وتفرعها عليها.

فارتبطت الجملتان بالوسائل التالية:

١ - التفسير لما أبهم من الضمائر فى الجملة السابقة، والتفصيل لبيان عجبهم.

٢ - الإحالة باستخدام اسم الإشارة «هذا» الذى يشير إلى أمرين:

الأول : مجىء منذر من البشر.

الثانى : إشارة إلى الرجع أو إلى ما تضمنه الإنذار وهو الإخبار بالبعث.

والأمران مدلول عليهما بالسياق.

٣ - الفاء الدالة على التعقيب والترتيب،

ثم يجيء تقرير هذا التعجب بالاستفهام الإنكارى:

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾: تفيد الجملة تقرير التعجب الصادر منهم، فكان أسلوب الاستفهام مناسبا للتأكيد للإنكار الكامن فى الجملة السابقة، أو تفسيرا لجهة التعجب . لأن تعجبهم من البعث أدخل فى الاستبعاد وأحق بالإنكار.

ويبحث المفسرون هنا عن مناسبة هذه الجملة لما قبلها ، فيقول الطبرى : «يقول القائل: لم يجر للبعث ذكر، فيخبر عن هؤلاء القوم بكفرهم ما دعوا إليه من ذلك فما وجه الخبر عنهم بإنكارهم ما لم يُدْعوا إليه وجوابهم عما لم يُسْئلوا عنه» (١)

ويبحث النحاة عن تقدير المحذوف هنا، فيقول الأخفش: «لأنه كان على جواب، كأنه قيل لهم إنكم ترجعون فقالوا: أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد» (٢).

ويقول الفراء : «قوله : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ كلام لم يظهر قبله ما يكون هذا جوابا له ولكن معناه مضمر إنما كان - والله أعلم - : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ لتبعثن بعد الموت فقالوا أنبعث إذا كنا ترابا، فجحدوا البعث ، ثم قالوا : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ (٣).

فكان الربط بتقدير جملة سابقة محذوفة فى الحوار مع هؤلاء المنكرين، ليكون كلامهم ردا عليها . وعرفنا تقدير الجملة المحذوفة بالنظر فى أول

---

(١) الطبرى : جامع البيان 26 : 93

(٢) الأخفش : معانى القرآن 2 : 522

(٣) الفراء : معانى القرآن 3 : 76

النص، يقول الطبرى: «وذلك أن الله دل بخبره عن تكذيب هؤلاء المشركين الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عن تكذيبهم رسولَه بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ﴾ .

فكأنه قال لهم : «ستعلمون أيها القوم إذا بعثتم يوم القيامة ما يكون حالكم فى تكذيبكم محمدا ﷺ فقالوا مجيبين : أئذا متنا وكنا ترابا نعلم ذلك ونرى ما تعدنا» (١)

إذا : ظرف فى محل نصب عاملها جواب الشرط المحذوف لدلالة ما بعده عليه، والمعنى: «أإذا متنا وكنا ترابا نبعث ونرجع للحياة؟».

وفى قراءة شاذة «إذا متنا» بغير أداة استفهام (٢) ، ويبحث النحاة عن غرض الحذف يقول ابن جنى : «يحتمل أمرين :

أحدهما : حذف همزة الاستفهام على القراءة العامة؛ فحذفها تخفيفا.

والآخر : أن يكون غير مريد للهمزة، فكأنه قال : «إذا متنا وكنا ترابا ، بعُد رجعنا ،. ونشورنا»(٣).

الرأى الأول يفسر الأسلوب فى القراءة الشاذة فى ضوء معرفة الأساليب المشهورة.

والثانى يجعله فى القراءة الشاذة أسلوبا خبريا ، فيكون من باب إثراء الأساليب ، ولا يخفى أن الأداء الصوتى للقراءة سيكشف عن اختيار القارئ لأحد الوجهين.

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ : تحتمل هذه الجملة فى سياق السورة وجهين:

---

(١) الطبرى : جامع البيان 26 : 94

(٢) هى قراءة ابن عامر والأعرج وشيبة وغيرهم ، انظر أبا حيان : البحر المحيط 8 : 120

(٣) ابن جنى : المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها 2:282

الأول : أنها بقية ردهم، والمعنى: ذلك البعث مستبعد فى الأوهام والفكر؛ فيكون الكلام متصلا ، وتكون الجملة تأكيدا للجملة السابقة.

الثانى : أن يكون الرجع بمعنى الجواب ، ويكون من كلام الله تعالى استبعادا لإنكارهم ، وعلى هذا الوجه يحسن الوقف على ما قبله.

والوجه الأول أولى ؛ لأن الرجع بمعنى البعث ، هو المقصود بالسورة كلها من بدايتها إلى نهايتها، أما الوجه الثانى فبعيد «ينبو عن إدراكه فهم العرب» على ما قال أبو حيان. (١)

وقد حاول بعض المفسرين تحديد الأمر العجيب هنا ، فقال فتادة : عجبهم أن دعوا إلى إله واحد . وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور. يعقب القرطبى قائلا: «والذى نص عليه القرآن أولى» (٢)

ويعلم من حالهم أن «بعيد» هنا بمعنى بعيد فى التقدير والظن، لا فى الزمان؛ لأنهم لم يكونوا يعترفون بالبَعث، لا قريبا ولا بعيدا.

ويرى الأشمونى أن الوقف هنا تام ؛ لأنه نهاية كلام الكافرين (٣)

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ : تجىء هذه الجملة فى ابتداء كلام لرد كلامهم، لذلك فصلت بدون أداة عطف فى حوارٍ معهم؛ لأن فيها ردًّا لاستبعادهم الرجع؛ بأن من كان عالما بذلك كان قادرا على رجعهم، كما توحى بالوعيد لهم على إنكارهم.

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط 8 : 121

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن 4 : 17 ، وهو يقدر البعث هنا من خلال فهمه لوحدة النص القرآنى فيقول : «وذكر البعث وإن لم يعبر ههنا فقد جرى فى مواضع والقرآن كالسورة الواحدة»

(٣) انظر : أبا عمرو الدانى : المكتفى فى الوقف والابتدا : والوقف الكافى يكون على كل كلام قائم بنفسه يفيد معنى يكتفى به.

والتعبير بالفعل المضارع على ما يقول الأستاذ سيد قطب: «يجسم حركة الأرض ويحييها ، وهى تذيب أجسادهم المغيبة فيها، وتأكلها رويدا رويدا ، ويصور أجسادهم وهى تتآكل باطرادٍ وتبلى». [١]

﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ : ذهب فريق إلى أنها معطوفة على ما سبق[٢]، والأصح أنها جملة حالية تفيد إحاطة علم الله بالموقف. والمعنى: مع علمنا بذلك.

وتدل الجملة الحالية هنا على أحد أمرين :

الأول : أنها تمثيل لعلم الله تعالى بكليات الأشياء ، وتفاصيلها.

الثانى : تأكيد هذا العلم ، بثبوته فى اللوح المحفوظ عنده.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ : تبدأ الجملة بالأداة (بل) التى تفيد إضرابا ثانيا ، تابعا للإضراب الأول، ولارتباطها بالنص وجهان:

الأول: بتقدير جملة منفية محذوفة، والمعنى: ما أجادوا النظر، بل كذبوا.

الثانى: أنها إضراب أتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق [٣].

والوجه الثانى أرجح لأنه يربط جملتى الإضراب ، دون حاجة إلى تقدير جملة سابقة ، كما يكشف عن تدرجهم ، وانتقالهم من التعجب إلى التكذيب.

﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ : يفيد الربط بالفاء أن هذه الجملة مترتبة على اضطراب أقوالهم، وقلق أحوالهم، فيما جاء المنذر به من عدم قبولهم إنذاره إياهم أول الأمر، ثم تعجبهم منه ، ثم استبعاد البعث، حتى انتهوا إلى التكذيب

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن 6 : 3358

(٢) يقول الشيخ ابن عاشور : عطف الأعم على الأخص وهو بمعنى تذييل لجملة «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم» (التحرير والتنوير 26 : 283)

(٣) الزمخشرى : الكشاف 4 : 4 وانظر : السمين الحلبى : الدر المصون 19:10

به. والقرآن يفسر الأمر المريج هنا فى سورة ق فى السورة التى تليها بقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾

(سورة الذاريات : ٥٢)

فهذا دليل على اختلاط أمرهم بقولهم مرة ساحر ، ومرة مجنون .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾

تجىء هذه الجمل ردًا على تكذيبهم ، بإرشادهم إلى النظر فى آثار قدرة الله تعالى ، فكانت الفاء لإفادة التعقيب على إنكار الرجع فهى مترتبة على قوله: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ... إلى قوله : فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ، فجاء التعقيب بما يشعر بالاستدلال عليه. حيث بدأ بذكر بناء السماء، بقوله : ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ ، وجملة بنيناها بدل من السماء على نية تكرار الفعل ينظروا ، وعطف عليها جملة زيناها أى بالكواكب ، ثم دلهم على اتساق ذلك بلا خلل؛ لأن تزيين السماء بالكواكب يعنى ترتيبها على أبدع نظام.

ويرى بعض المفسرين أن جملة ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أخرت لمراعاة الفاصلة، والحق أنها فى موضعها بعد ذكر بناء السماء وتزيينها . ولا يجوز الاكتفاء بالقول بمراعاة الفاصلة مع وجود فائدة معنوية ظاهرة، وتتحقق الفائدة بإعرابها جملة حالية، لأن الحال المؤسسة تفيد معنى جديدا [١].

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾:

ترتبط جملة ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ بجملة : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ من عطف الخبر على الاستفهام الإنكارى ؛ لأنه يفيد الإخبار .فهى معطوفة عليها عن طريق المشاكلة.

والمشاكلة توافق الجمل فى النص ، وهذا التوافق غرض من أغراض

(١) انظر : الآلوسى : روح المعانى 14 : 263

التأليف، وقد فطن النحاة له فى دراستهم لباب الاشتغال ، يقول ابن يعيش : «والعرب تختار مطابقة الكلام ما لم تفسد المعانى ؛ إذ الغرض توافق الجمل وتطابقها لا تختلف» (١).

فالأرض هنا منصوبة على الاشتغال بفعل محذوف يفسره المذكور ، على تقدير الجملة الفعلية المعطوفة على نظيرتها السابقة ، والمعنى «ومددنا الأرض» والواو لعطف الجمل والغرض منها انتقال نظرهم من آثار القدرة فى السماء ، إلى آثارها فى الأرض .

وتتدرج الجمل من ذكر البعيد إلى القريب ؛ بدءا بمد الأرض ، ومرورا بإرساء الجبال ، ووصولا إلى الإنبات.

وأنت تلمح فى ختام الآيتين مناسبة جليلة؛ إذ انتهت الآية السابقة بما يتعلق بالناظر حيث يطالع الاتساق والانسجام فى تزيين السماء، وهو هنا يطالع حسن تزيين الأرض بكل زوج من النبات بهيج يبهج ويسر من نظر إليه.

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾: تبصرة وذكرى مفعولان لأجلهما، وهما يرتبطان بالجمل السابقة من جهتين:

١ - من حيث المعنى ، أنهما تعليل للأفعال السابقة، إذ يتعلق المصدران بالأفعال السابقة جميعا، ويربط الرازى بين كل مصدر وما يناسبه ، فقال : «التقدير : خلقنا السماء تبصرة ، وخلقنا الأرض ذكرى» (٢).

يدل على ذلك أن السماء وزينتها غير متجددة فى كل عام ، وأما الأرض فهى كل سنة تأخذ زينتها . فجعل التبصرة للشىء المرئى على مر الزمان، والتذكرة لما يتجدد ، فيذكر عند التناسى ، بأمور الدنيا.

---

(١) ابن يعيش : شرح المفصل 2 : 23

(٢) الرازى : مفاتيح الغيب 28 : 135

وقرأها زيد بن على برفعهما على تقدير «خلْقُ السموات والأرض تبصرةٌ وذكرى» (١).

٢ - من حيث الإعراب أنهما منصوبان بالفعل الأخير (أنبتنا)

أما قوله : ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ ﴾ فمتعلق بالمصدرين تبصرة وذكرى.

وخص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى ، لأنه هو الذى ينتفع بذلك فكأنه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال» (٢)

تجىء الآيات التالية - بعد النظر والتذكير والتبصير فى صنع السموات والأرض وما فيهما ، فانتقل الكلام إلى التذكير بإيجاد آثار من آثار تلك المصنوعات تتجدد على مكرور الدهر حية ثم تموت ثم تحيا.

وقد لاحظ الشيخ ابن عاشور تغير أسلوب الكلام من أجل هذا الانتقال إذ خرج من أسلوب الاستفهام فى ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ إلى الإخبار بقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ إيذانا بتبديل المراد ليكون منه تخلص إلى الدلالة على إمكان البعث فى قوله : ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (٣).

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة سابقة هى ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ وتتحقق المناسبة هنا من كون الجملة السابقة جملة فعلية كما رأيت قبل.

﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ : تنكير الجنات يفيد هنا الكثرة ، واختص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود من نعمة الإنبات، واختلف العلماء فى معنى الإضافة هنا: يقول العكبرى: «أى وحب النبات المحصود، وحذف الموصوف.

---

(١) هى قراءة زيد بن على . انظر : البحر المحيط 121 ، والآلوسى : روح المعانى 14 : 264

(٢) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير 26 : 291

(٣) السابق

كما لاحظ إيثار السورة هذا التركيب فقال : "ومثله حبل الوريد : أى حبل العرق الوريد [١]

وقال الفراء : هو فى تقدير صفة الأول أى : والحب الحصيد ، وهو بعيد مما فيه من إضافة الشىء إلى نفسه [٢]

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَات ﴾ : النخل معطوف على جنات ، وأفرد النخل بالذكر مع اندراجها فى الجنات لكثرة منافعها، وزيادة ارتفاعها.

﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيد ﴾ : الجملة حالية فهى فى محل نصب حال من النخيل مثل قوله باسقات ، أو من الضمير فى باسقات، ونضيد بمعنى اسم المفعول وهى مناسبة فى المعنى لقوله ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ للدلالة على حسن الاتساق والانسجام فى الأرض والسماء.

﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَاد ﴾ : مفعول لأجله يبين حكمة الفعل أنبتنا ، وهى الرزق بالطعام والشراب. ولم يقيد كما قيد ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى ﴾؛ لأن الانتفاع بالرزق عام بخلاف الانتفاع بالتبصرة والذكرى فهما يحتاجان إلى التأمل والنظر فى الكون؛ فيكون ذكر التبصرة والذكرى أولا للدلالة على شرف الفريق الأول. وفيه تنبيه على أن اللائق بالعبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أولى من تمتعه به من حيث الرزق. فالمنيب يأكل ذاكرا وشاكرا للإنعام وغيره يأكل كما تأكل الأنعام !

إن اختلاف النسق فى الموقفين يدل على بيان تفاوت درجات البشر فى

---

(١) العكبرى : التبيان فى إعراب القرآن 2 : 1174

(٢) الفراء : معانى القرآن 3 : 76

النظر إلى أنعم الله، فمن الناس من لا يقف عند المستوى النفعى، بل يرقى إلى المستوى الجمالى، الذى تقدمت الإشارة إليه. ومن الناس من لا يعنى إلا بالنفع المادى. من أجل هذا لم يقيد للعباد هنا بشرط الإنابة كما صنع مع التبصير والذكرى لأن الذكرى خاصة لا تكون إلا للمنيب ، بينما الرزق يعم كل أحد.

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ : الجملة معطوفة على جملة فأنبتنا لتعديد منافع الماء فالضمير عائد على الماء. ووصف البلدة بقوله ميتا، وهو نعت مذكر حملا على المعنى لأن البلدة بمعنى البلد أو المكان.

﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾: تربط الإشارة بين نوعين من الخروج الناشئ عن الإحياء:

الأول : خروج النبات من الأرض بالإحياء.

والثانى : خروج الموتى من قبورهم بإحيائهم للبعث.

والغرض من تشبيه إحياء الأرض المشار إليه بـ «ذلك» والخروج بمعنى البعث تحقيق المماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، وتقريبه إلى أفهام المتلقين بصورة حية قريبة. يقول القشيرى: «وكما سقنا هذا الماء إلى بلدة جف نباتها ، وكما فعلنا كل هذه الأشياء - كذلك نجمعكم فى الحشر والنشر، فليس بعثكم بأبعد من هذا» (١)

وفى الآية تقديم حيث تقدم الخبر (كذلك) للعناية هنا بتمثيل البعث وتقريبه.

والوقف هنا تام (٢) . لأنه ختام الحديث عن قدرة الله على البعث.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

(١) القشيرى : لطائف الإشارات 3 : 449

(٢) الدانى : المكتفى : 535

لوط * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ : الجملة للاستئناف مرتبطة بقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ؛ إذ عقب بأنهم ليسوا بدعا فى التكذيب الوارد لتقرير حقيقة البعث ببيان اتفاق الرسل عليه كافة، والمعنى: كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب ، وتاء التأنيث فى الفعل تفيد أن قوما هنا بمعنى أمة أو جماعة.

والمقصود بفرعون هنا : قومه ليلائم ما قبله وما بعده. لأنه معطوف على قوم نوح، وأصحاب الرس وثمود وعاد، كما عطف عليه إخوان لوط وأصحاب الأيكة، وقوم تبع، وهذه المعطوفات كلها جماعات.

وأنت تلاحظ رعاية المفسرين لاطراد السياق بتقدير مضاف محذوف، وإقامة المضاف إليه مقامه لأنه سبب ضلالهم، فهو يتحمل نصيبا موفورا من تكذيبهم.

والمراد بإخوان لوط أصهاره فليس المراد الأخوة الحقيقية من النسب ، فالإضافة هنا مجازية.

أما سر ذكر هؤلاء بهذا الترتيب فإن نوحا عليه السلام أول رسول بعث إلى أهل الأرض فكان قومه أول المكذبين للرسالة. وفى الفتوحات الإلهية: «ذكر ثمود بعد أصحاب الرس: لأن الرجفة التى أخذتهم مبدؤها الخسف بأصحاب الرس، ثم أتبع ثمود بعاد لأن الريح التى أهلكتهم إثر صيحة ثمود». (١)

واستدل الجملُ بالتعبير بالمضاف إليه (قوم تبع) على أن تبع كان مؤمنا ، إذ أسند التكذيب إلى قومه بخلاف قوله ثمود وعاد وفرعون. (٢)

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ : جملة مؤكدة للجملة السابقة؛ لذلك لم تعطف

---

(١) الجمل : الفتوحات الإلهية ٤ : 191

(٢) السابق

بالواو إشارة إلى كل هؤلاء المكذبين المذكورين، لتخويف المكذبين المشار إليهم فى بداية السورة، والغرض هنا ربط الأزمان بعضها ببعض. وتمت الإشارة بتنوين كل لأن التنوين هنا عوض عن المضاف إليه أى كل أمة منهم، أى من المذكورين سابقا ، والمراد الجميع. يقول الأستاذ سيد قطب : «وهى لفتة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسالة» [١]

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ : الفاء للتعقيب ، لبيان سرعة عاقبة التكذيب ، وحذفت ياء الإضافة مراعاة للفاصلة، هو ملمح من ملامح الأسلوب القرآنى، والتقدير: وعيدى. وفى تقدير الياء دلالة على التوحيد ، يقول الرازى : «لأن المتكلم أعرف المعارف» [٢].

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾: يرد الاستفهام هنا مورد الاستئناف ليقرر صحة البعث الذى حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المذكورة، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على جملة محذوفة تقديرها : «أقصدنا الخلق الأول فعيينا عنه حتى يُتوهم عجزنا عن الإعادة؟!»

وتشير الفاء إلى أن هذا الكلام مترتب على ما قبله ، وهو جملة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾ .

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ : بل هنا للإضراب الإبطالى عن المستفهم عنه، أى بل ما عيينا ، فتشير إلى جملة محذوفة يدل عليها ما قبلها فى سياق السورة كما يقول الشيخ سليمان بن عمر الشهير بالجمل [٣] : إنها عطف على مقدر يقتضيه السياق يدل عليه ما قبله والتقدير : إنهم معترفون

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن 6 : 3361

(٢) الرازى : مفاتيح الغيب 28 : 165

(٣) الجمل الفتوحات الإلهية 4 : 192

بالخلق الأول فلا وجه لإنكارهم الثانى بل هم فى خلط وشبهة من خلق جديد يخالف الإلف والعادة ، والغرض من هذا توبيخ المنكرين للبعث، وإقامة الحجة عليهم.

وتلاحظ التعريف فى قوله : ﴿ الْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ ، والتنكير فى : ﴿ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ لأنهم إنما يستبعدون الثانى، وللإشارة إلى أنه خلق على وجه لا يعرفه الناس.

ثم شرع فى تقرير خلق الإنسان الدال على شمول علم الله.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ : عطف على ما سبق لتعديد الحجج على الكفار، وذهب فريق إلى أن المقصود بالخلق الأول خلق السموات والأرض، فناسب أن يذكر بعده خلق الإنسان.

﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ جملة حالية دالة على المستقبل. والتقدير: ونحن نعلم ما سوف يعرض له من الوساوس، يقول العكبرى: ويجوز أن يكون مستانفًا (١).

والوجه الأول أولى لسببين :

أولهما : أن تقديرها حالا يتضمن زيادة بيان.

ثانيهما : أن تقدير الاتصال أولى.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ : ذهب كثير من المفسرين إلى أن الجملة تصوير وتمثيل لعلم الله ، يقول القاسمى: «وطائفة من أهل السنة تفسر القرب فى الآية بالعلم لكونه المقصود ؛ فإنه إذا كان يعلم ويسمع الداعى حصل مقصوده» (٢)

---

(١) العكبرى : التبيان فى إعراب القرآن 2 : 1174

(٢) القاسمى : محاسن التأويل 15 : 5495

أما ابن كثير فذهب إلى أن نحن هنا تشير إلى الملائكة ، فقال : يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه» (١).

وهو بعيد لأن الضمير هنا وارد فى سياق الحديث عن قدرة الرب، والجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ .

ويذهب القشيرى إلى اختلاف تأثير الأسلوب باختلاف المتلقى ، فيقول : «وفى هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، وروح وسكون وأنس قلب لقوم» (٢) وظاهر السياق أنها للتهديد.

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ : اختلف النحاة فى تقدير الآية على مذاهب ، يقول العكبرى:

دل قعيد هذا على قعيد الأول: أى عن اليمين قعيد، وقيل قعيد المذكور الأول والثانى محذوف ، وقيل لا حذف، وقعيد . بمعنى قعيدان وأغنى الواحد عن الاثنين» (٣).

والرأى الثالث أرجح وهو مذهب سيبويه (٤) ، الفراء (٥) لأمرين:

الأول : أنه لا يحتاج إلى تقدير محذوف.

الثانى : أن له نظائر كما يقول العكبرى (٦)

والغرض من اختيار الإفراد تناسب الفواصل.

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 4 : 200

(٢) القشيرى : لطائف الإشارات 6 : 420

(٣) العكبرى : التبيان فى إعراب القرآن 2 : 1175

(٤) انظر : سيبويه : الكتاب 3 : 136 ، وقد عزا ابن عطيه إلى سيبويه أن التقدير عن اليمين قعيد فاكتفى بذكر الآخر عن ذكر الأول . والصواب ما أثبته من الكتاب انظر : ابن عطيه : المحرر الوجيز ٥ / ١٦٠

(٥) الفراء : معانى القرآن 3 : 77

(٦) العكبرى : التبيان فى إعراب القرآن 2 : 1175

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ : رقيب وعتيد ملكان بمعنى حافظ حاضر، والصفتان تناسبان الغرض من الإحصاء والكتابة . وصرح باسميهما بعد قوله ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ ليفيد أنهما ملكان معدان للقيام بهذا العمل.

الفقرة الثانية مشهد البعث :

يقول الجمل : «لما ذكر تعالى استبعادهم البعث والجزاء المذكور بقوله: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم أتبع ذلك بيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث، وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال» (١)

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (١٩-٣٥).

---

(١) الفتوحات الإلهية 4 :

تأخذنا هذه الفقرة إلى معاينة مشهد البعث ، بعد أن مهدت الفقرة السابقة إليه بمناقشة المكذبين له، وإقامة البراهين على إمكانه.

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ : عطف على جملة ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ﴾ لبيان ما سيلاقونه لا محالة من الموت والبعث . ويفيد التعبير بالماضى تحقق الوقوع كما يشير إلى أنها فى غاية القرب . وكلمة الحق مناسبة لهذا المعنى؛ لأن الحق واقع لا محالة.

يقول الألوسى: «كلام وارد بعد تتميم الغرض من إثبات ما أنكروه من البعث بأبين دليل وأوضحه» (١)

وفى قراءة شاذة بالقلب: «وجاءت سكرة الحق بالموت» (٢)

والمعنى أنها السكرة التى كتبت على الإنسان فهى لشدتها توجب الموت. ويتساءل ابن جنى قائلا : «كيف يجوز أن تقول : «جاءت سكرة الحق بالموت» . وأنت تريد به: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ فيا ليت شعرى أيتها الجائية بصاحبتها» ؟! (٣)

ثم يجيب مصورا ارتباط الأمرين فيقول : «لاشتراكهما فى الحال ، وقرب إحداهما من صاحبتها صار كأن كل واحدة منهما جائية بالأخرى ؛ لأنهما ازدحمتا فى الحال، واشتبكتا حتى صارت كل واحدة منهما جائية بصاحبتها، كما يقول الرجلان المتوافيان فى الوقت الواحد إلى المكان كل واحد منهما لصاحبه: لا أرى أأنا سبقتك أم أنت سبقتنى»؟ (٤)

---

(١) الآلوسى : روح المعانى 14 : 273

(٢) انظر : روح المعانى 274 : 14

(٣) ابن جنى : المحتسب 2 : 283

(٤) السابق

فأفاد القلب النحوى هذه الصورة الحية للعلاقة الوطيدة بين الموت والحق لدى الجمع بين القراءتين.

﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ : الإشارة هنا إلى الموت أو الحق ، والمعنى واحد، وفى الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب غرضه التنبيه ، واختلفوا فى تقدير المخاطب ، والظاهر أنه خطاب للإنسان الذى جاءته سكرة الموت، يقول الطبرى «وأولى الأقوال عندى بالصواب قول من قال عنى بها البر والفاجر : لأن الله أتبع هذه الآيات قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ والإنسان فى هذا الموضع بمعنى الناس كلهم غير مخصوص منهم. (١)

انظر كيف رجح الطبرى المعنى المناسب لسياق الآيات.

ويفصل الطيبى المسألة فى ضوء اتصال الجملة بما سبقها فيقول : «إن كان متصلا بقوله ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فالمناسب أن يكون الخطاب للفاجر، وإن كان متصلا بقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ فالمناسب أن يكون المشار إليه الموت والخطاب للجنس وفيه البر والفاجر. (٢)

ويؤكد هذا البحث قيمة السياق فى اتصال النص، ومراعاة المناسبة بين الجمل.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ : يدل الفعل هنا على المستقبل ، وإنما عبر بالماضى تنبيها على تحقق الوقوع على ما هو شائع فى مشاهد القيامة فى القرآن الكريم.

---

(١) الطبرى : 26 : 102

(٢) الآلوسى : روح المعانى 14 : 274

ويشير اسم الإشارة «ذلك» إلى مصدر الفعل نفخ وأضاف يوم الوعيد وإن كان يشمل الوعد والوعيد معا مناسبة لسياق النص وغرضه تخويف المكذبين.

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ : عطف على الجملة السابقة، والسائق والشهيد ملكان، وتتضح مناسبة ذكرهما هنا مع مجيء كل نفس حيث تحتاج إلى ملك يسوقها إلى أمر الله فى هذا الموقف ، وآخر يشهد لها بعملها.

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ : الجملة هنا محكية ، وفعل القول محذوف والتقدير : يقال له : لقد كنت ، والجملة المحذوفة تفيد أن الاستئناف بيانى على تقدير سؤال محذوف نشأ مما قبله كأنه قيل : فماذا يكون بعد النفخ ، ومجيء كل نفس معها سائق وشهيد؟ فقيل : يقال للكافر الغافل : لقد كنت فى غفلة ، والتنكير فى كلمة : «غفلة» يفيد أنها غفلة تامة.

وعلى الوجه الثانى من توجيه الخطاب للإنسان يكون معنى الغفلة : الذهول مطلقا .

والأسلوب على كلا الوجهين ، التفات من التأنيث بالحديث عن النفس إلى التذكير بقوله لقد كنت».

وفى قراءة الجحدرى : بغير التفات بالكسر على مخاطبة النفس بالتأنيث. (١)

ويرد الألوسى على من زعم أن الخطاب هنا للرسول ﷺ فيقول: «ولعمرى أنه زعم ساقط لا يوافق السياق». (٢)

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ : التعبير بالغطاء تصوير

---

(١) انظر أبا حيان : البحر المحيط 8 : 125 والآلوسى : روح المعانى : 277:14

(٢) الآلوسى : روح المعانى 14 : 277

للغفلة المذكورة فى الجملة قبلها كأنها غطت جميعه أو عينيه فيترتب على إزالتها حدة البصر ليدرك ما أنكره فى الدنيا.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ : تدل الواو هنا على أنه من خطاب الإنسان من قرينه ، ومتصل بكلامه . يقول الزمخشرى : «واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها فى الحصول» [1] والإشارة إلى شخص الكافر نفسه، أى هذا ما عندى قد هيأته لجهنم» . ولا يتنافى هذا مع ما سيقوله بعد: ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ ، وله نظير فى أسلوب القرآن ، كما حكى الله تعالى عن إبليس قولين:

الأول قوله : ﴿ ولأضلنهم ﴾

والثانى : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ .

فدل النظر فى النص القرآنى على صحة توجيه عطف الجملتين : ﴿ هَذَا ما لدَيَّ عَتِيد ﴾ . و : ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ على أنهما كلام واحد.

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ : اختلف المفسرون فى المراد بالمخاطب هنا على أقوال :

★ أنه خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار.

★ هو لواحد ، والألف عوض من تكرير الفعل ، أى ألقِ ألقِ ، وهو قول المبرد ، يقول الألوسى : ولا يخفى بعده.

★ هو لواحد ، ولكن خرج على لفظ التثنية على عادة العرب.

★ أن الألف بدل من النون الخفيفة ، وأجرى الوصل مجرى الوقف.

---

(١) الزمخشرى : الكشاف 4 : 8

والقول الأول هو المناسب لسياق الآيات ، فقد سبقت التثنية صريحة فى قوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ ، وفيما ذكر فى سياق الآيات كسائق وشهيد، ورقيب عتيد.

أما الوجه الثالث فمستبعد على كثرة مجيئه فى الشعر ؛ لأن النظر النحوى يميز بين ما يصلح لكل نصٍّ من الأساليب . وبهذا يتميز التوجيه النحوى فى القرآن عنه فى الشعر .

ويستشهد ابن جنى للوجه الأخير بقراءة الحسن: «ألقينْ» [1] بنون التوكيد الخفيفة، وهى قراءة شاذة فيقول : هذا يؤكد قول أصحابنا فى ألقيا إنه أراد ألقيًا ، وأجرى الوصل فيه مجرى الوقف» [2] وليس كما قال للتصريح بعد ذلك بالتثنية فى الآية التالية:

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ : جملة خبرية فى معنى جواب الشرط للدلالة على الجزاء . والفاء ههنا للإشعار بأن الإلقاء إنما هو بسبب الأوصاف المذكورة ، ولهذا تكرر بعد ذكر الأسباب الموجبة له.

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ : جاء سرد هذه الجملة بطرح الواو، وقد مر بك سرد قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ .

وإذا أنت تساءلت عن سر الفصل هنا أجابك الزمخشرى قائلا : «لأنها استؤنفت كما تستؤنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول (يعنى الحوار) كما رأيت فى حكاية المقاولة بين موسى وفرعون. فإن قلت أين التقاول ههنا؟

قلت : لما قال قرينه ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ ، وتبعه قوله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا

(١) هى قراءة الحسن، انظر البحر المحيط 8 : 126

(٢) ابن جنى : المحتسب 2 : 283

مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ وتلاه : ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ - علم أن ثم مقاولة (يعنى محاورة) من الكافر .. لكنها طرحت لما يدل عليها، كأنه قال : هو أطغانى ، فقال قرينه : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ .

فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الطغيان إليه، بخلاف الجملة الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها دلالة على الجمع بين مفهوميهما فى الحصول أعنى مجىء كل نفس مع الملكين ، وقول قرينه» (١)

ويدلك هذا البحث على القيمة الدلالية لوسيلة الربط ، حيث دل الربط بواو العطف بين الجمل ، فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيد﴾ على إشراكها مع الجملة السابقة، وهى ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْس﴾. فى حين دل الاستئناف البيانى بطرح الواو على حوارٍ مؤلف من كلام سابق مع جملة : ﴿قَالَ قَرِينُه﴾ يدل عليه قوله تعالى فى الآية التالية : ﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ حيث دل النهى عن التخاصم على «أن ثمة مقاولة من الكافر» كما يقول النيسابورى لكنها طويت لدلالة الاختصام عليها، والمعنى لا تختصموا فى موقف الحساب (٢)

﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ : استئناف آخر لأنه بقية الحوار السابق مبنى على سؤال تقديره : «فماذا قال الله تعالى للكافرين وقرنائهم ؟» فقيل : ﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ .

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيد﴾ : الجملة واقعة موقع الحال من جملة :

---

(١) الزمخشرى : الكشاف 4 : 8

(٢) النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان 26 : 116

﴿ لا تَخْتَصِمُوا ﴾ ويلاحظ معنى العلم. والتقدير : عالمين أنى قدمت إليكم . فيكون الغرض من الجملة تعليل النهى عن الاختصام.

وللباء فى قوله : ﴿ بِالْوَعِيدِ ﴾ وجهان.

الأول : أنها زائدة.

الثانى : أنها ومجرورها فى محل نصب حال .

والقول الثانى أولى ؛ لمراعاة حق المعنى ؛ لأنه يكشف عن دلالة للأداة . يقول الطبرى : «إن زيادة ما لا يفيد من الكلام معنى فى الكلام غير جائز إضافته إلى الله - جل ثناؤه» (١)

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ : الأظهر أنها استئناف لذلك لم تعطف بأداة . والقول هو الوعيد المذكور آنفا ، والجملة بعدها معطوفة عليها لدفع الوهم.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ : اختلف النحاة فى إعراب «يوم» على وجوه :

★ أنه مفعول به لعامل محذوف تقديره : اذكر ، أو أنذر.
★ أنه ظرف لصيغة المبالغة: «ظلام».
★ أنه ظرف للفعل نُفِخَ ، وأجازه الزمخشرى (٢)

وأنسب الأقوال الوجه الأول ، لأن به يتصل الكلام ، والمعنى : وما أنا بظلام للعبيد فى يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟

وقد استبعد أبو حيان الوجه الأخير ؛ لأنه «يفصل بين العامل والمعمول بجملٍ كثيرة فلا يناسب فصاحة القرآن الكريم وبلاغته» (٣).

---

(١) الطبرى : جامع البيان (دار المعارف) 2 : 331
(٢) الزمخشرى : الكشاف 4 : 9
(٣) أبو حيان : البحر المحيط 8 : 127

ويدلك هذا على مراعاة النظر النحوى لمستوى فصاحة النص المراد النظر فيه ، حيث لا يختار إلا ما يتناسب مع مستواه البلاغى.

واختلف النظر إلى الحوار مع جهنم فذهب الزمخشرى من المعتزلة إلى أنه من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب [١] ، والصواب أنه على الحقيقة على ما قرره أهل السنة، بأن يخلق الله فيها الإدراك فى هذا اليوم المشهود . ودليلهم أن الأصل فى التفسير الأخذ بظاهر الألفاظ ما لم يمنع مانع، ولا يوجد مانع من إرادة الظاهر هنا ، بل ورد فى الحديث ما يؤكده كمجادلة الجنة والنار.

ومن النحاة من قدر مضافا محذوفا ، كالرمانى قائلا : «أى نقول لخزنة جهنم» [٢] ورده المحققون من النحاة لما فيه من التكلف.

أما أسلوب الاستفهام فى : ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ ﴾ فخارج عن غرضه الأصلى إلى غرض آخر هو التقرير.

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيد ﴾ : لهذه الجملة وجهان:

★ أنها استئناف للانتقال إلى بيان حال المؤمنين ، بعد ذكر حال الكفار.

★ أنها معطوفة على جملة نفخ فى الصور ، استكمالا لمشاهد القيامة.

ويفيد هذا النسق تكريم المتقين من خلال الملاحظات التالية:

★ إسناد الفعل أزلفت إلى الجنة ولا يتحقق هذا باستعمال جملة : «أزلف المتقون للجنة».

★ ذكر المتقين هنا مع إغفال ذكر المكذبين فى سياق الحديث عن جنهم.

★ التعبير بالفعل الماضى، يقول النيسابورى : «والمضى لتحقيق الوقوع

---

(١) الزمخشرى : الكشاف 4 : 9

(٢) انظر : الآلوسى : روح المعانى 14 : 282

المستدعى لمزيد البشارة، ولم يكن المنذورون مذكورين فى الآية المتقدمة فلم يحتج إلى تحقيق الإنذار» (١)

والمراد بالتحقق ههنا كونه حقا، لا أن المراد بالتحقق هنا الوقوع الحاصل». وقال فريق: المراد تقريب حصولها ، والدخول فيها لا القرب المكانى، وذهب آخر إلى أن المراد التقريب على ظاهره.

ويجمع النيسابورى بين المعنيين فيقول: «إن الشىء ربما يقرب من شخص ولكن لا يوهب منه، وقد يملكه ولكن لا يكون قريبا منه ، فذكر الله سبحانه فى الآية أن الجنة تقرب لأجل المتقين، غير بعيد الحصول لهم، بل كما قربت دخلوها، وحصلوا فيها، لأنهم حصلوا استعداد دخول الجنة، وهو التقوى» (٢)

وتلاحظ تذكير بعيد فلم يقل غير بعيدة، واختلفت نظرات المفسرين (٣)، فقال فريق: «وفيه مبالغة، إما على إرادة المكان أى فى مكانٍ غير بعيد أو الزمان أى فى زمان غير بعيد أو المصدر أى إزلاف غير بعيد.

ومنهم من ذهب إلى حمل الجنة على معنى البستان.

ومنهم من فسره بأن بعيد على وزن فعيل من شأنه أن يستوى فيه المؤنث والمذكر.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾: جملة محكية ، بتقدير قول محذوف، والمعنى : أزلفت الجنة مقولا لهم: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾، فيكون هذا الخطاب فى مقابل خطاب الله تعالى لجهنم فى الجملة السابقة، وسيأتى مثله فى قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ .

---

(١) النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان 26 : 20

(٢) السابق 26 : 122

(٣) الآلوسى : روح المعانى 14 : 284

وذهب فريق[١] إلى أنها جملة اعتراضية بين المبدل منه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، والبدل ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ واستبعده الآلوسى بحق؛ لأن الأصل عدم الاعتراض.

واسم الإشارة (هذا) يشير إلى الجنة المذكورة فى الجملة السابقة، على اختلاف المطابقة؛ لأن المشار إليه هو المسمى من غير قصد التذكير أو التأنيث، وله نظائر فى الأسلوب القرآنى ، كما فى قوله تعالى : ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ : تتصل هذه الآية والآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن طريق التبعية لأن : ﴿كُلِّ أَوَّابٍ﴾ و﴿مَّنْ خَشِيَ﴾ بدل بعد بدل للمتقين.

ومن النحاة من يرى أن ﴿من﴾ منادى كقولهم: من يزال محسنا، أحسن إلى حذف حرف النداء للتقريب والترحيب، والتقدير : يا من خشى [٢].

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ : جملة محكية فعلها محذوف ، بتأويل : يقال لهم ادخلوها ، وأسند الفعل إلى ضمير الجماعة مراعاة لدلالة الاسم الموصول «مَنْ» على العموم ، والإشارة بذلك إلى الزمان الممتد الذى وقع فى بعض منه ما ذكر من الأمور السابقة، أو إشارة إلى وقت السلام. ويرى أبو حيان أن قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ معادل لقوله تعالى فى الكفار ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [٣].

---

(١) السابق

(٢) النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان 26 : 123 ، السمين الحلبى : الدر المصون 32:10

(٣) أبو حيان : البحر المحيط 8 : 128

يشير بذلك إلى قيمة توازن البناء فى السورة الواحدة.

الفقرة الثالثة : الخاتمة:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٣٦-٤٥)

تشتمل الخاتمة على إشارات سريعة لما تضمنت الفقرتان السابقتان، على النحو التالى :

١ - الإشارة إلى تهديد المكذبين بوجه أشمل.

٢ - الإشارة إلى ما سبق كله بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ والمقصود بالإشارة ما ورد فى السورة.

٣ - الإشارة إلى قدرة الله على الخلق الأول ، للدلالة على قدرته على البعث.

٤ - الإشارة إلى مشهد البعث بقوله : ﴿ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ .

٥ - الإشارة إلى القرآن الذى سبق ذكره فى أول السورة.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ : الضمير فى (قبلهم)

يحيل إلى المكذبين السابق ذكرهم فى أول السورة ، يقول الجمل : لما ذكر تعالى فى أول السورة تكذيب الأمم السابقة ذكر هنا إهلاك قرون ماضية» [١]

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ : الفاء عاطفة ولكن معناها يتوقف على معنى التنقيب ، على ما يلى :

★ إذا كان التنقيب بمعنى السير ، ونحوه كانت لمجرد التعقيب.

★ فإذا كان بمعنى التصرف كانت الفاء دالة على السببية؛ لأن تصرفهم فى البلاد مسبب عن اشتداد بطشهم.

وهى على الوجهين عاطفة على معنى الجملة قبلها والتقدير: اشتد بطشهم فى البلاد للتنقيب . [٢]

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ : لهذه الجملة وجوه:

الأول : أنها جملة محكية بحذف قول هو حال من الفاعل واو الجماعة فى جملة نقبوا. والتقدير فنقبوا فى البلاد قائلين «هل لنا مخلص من الله تعالى»؟

الثانى : أنها جملة استئنافية تفيد الاستفهام الصادر من المولى عز وجل، والغرض منه تنبيه الغافل الذاهل ويكون التقدير: اشتد بطشهم فنقبوا فى البلاد ولم يسلموا لله رب العالمين مع كثرة تفتيشهم ، فيواجههم الله عز وجل، بهذا السؤال بقوله هل من محيص، أى هل من مهرب من قضائنا؟

وفى قراءة ابن عباس، وابن يعمر وغيرهما: «فنقِّبوا» على صيغة الأمر[٣]، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب الغرض منه التنبيه والتهديد.

(١) الجمل : الفتوحات الإلهية 4 : 198

(٢) الآلوسى : روح المعانى 14 : 288

(٣) هى قراءة يحيى بن يعمر انظر : الطبرى : جامع البيان 26 : 99 وقرأها ابن عباس وأبو العالية ونصر بن سيار وأبو حيوة : انظر : ابن جنى : المحتسب 2 : 258 وأبا حيان : البحر 8 : 129

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد ﴾: الإحالة هنا إلى الإهلاك أو إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا ، وهو أولى لترابط الجمل فى السورة . يقول القرطبى: «أى فيما ذكرناه فى هذه السورة».

ويقول ابن القيم : وهذا هو المؤثر. وقوله : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْب ﴾ فهذا هو المحل القابل ، والمراد به القلب الحى ، فإذا حصل المؤثر ، والمحل القابل، ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شىء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والذكر (١)

تلك هى وسائل الحصول على ثمرة الخطاب على ما توضحه الآية الكريمة. ثم يتساءل عن سر العطف بأو فى قوله تعالى لمن كان له قلب أو ألقى السمع والموضع موضع واو الجمع لا موضع أو التى هى لأحد الشيئين ، لأن التأثير إنما يتم بجموع هذه الأمور المذكورة ، فيفسر سر اختيار الأداة أو هنا فى ضوء اختلاف حال المخاطبين ، فيقول : «خرج الكلام بـ (أو) باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حى القلب واعيه تام الفطرة ، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق ، ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد ، واعى القلب فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام» (٢)

فناسبت كل جملة حالة أحد الفريقين.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّام ﴾ : يقول الشيخ ابن عاشور عن مناسبة اتصال هذه الآية بما قبلها «إنها تكملة لما وصف من خلق السموات فى قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ .. إلى

(١) ابن القيم : الفوائد : 9

(٢) السابق : 10

قوله :﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ؛ ليتوصل به إلى قوله ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها عطف القصة على القصة. (١)

فدله النظر فى التناسب إلى قيمة هذه الجملة فى وصل ما قبلها بما بعدها ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾، ولهذه الجملة وجهان :

الأول : أنها جملة حالية تبين قدرة الله عز وجل ، ولمعنى الحال هنا موقع عظيم من تقييد ذلك الخلق العظيم فى تلك المدة القصيرة بأنه لا ينصب خالقه ، لأن الغرض من معظم هذه السورة بيان إمكان البعث فكانت هذه الآيات كلها مشتملة على إبراز معنى سعة القدرة الإلهية». (٢)

وهذا الوجه أولى لأنه يجعل الجملة متصلة بما قبلها ولمناسبته لغرض السورة كما رأيت.

الثانى : أنها استئنافية لأحد غرضين :

(أ) الرد على المكذبين المذكورين فى السورة.

(ب) الرد على اليهود (لعنهم الله) إذ زعموا أن الله (تعالى عما يقولون علوا كبيرا) استراح يوم السبت.

والغرض الأول أنسب لسياق الآيات ، لأنه لم يسبق لليهود (لعنهم الله) ذكر هنا.

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ : الفاء تفيد الترتب على متقدم، وقد بحث المفسرون عن سر العطف بالفاء هنا فقال فريق : «الكلام متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ﴾ على الوجهين المذكورين فى الآية السابقة.

---

(١) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير 26 : 325

(٢) السابق

ويرى الآلوسى بحق أن الأنسب أنه متعلق بأول السورة إلى هذا الموضع ؛ لأن الكلام مرتبط بعضه ببعض إلى ههنا كما لا يخفى على المسترشد» (١)

وناسب هذا اختيار الاسم الموصول : (ما) لإفادته العموم؛ فجمع جميع أقوالهم السابقة من التكذيب ، واستبعاد البعث.

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ : عطف على جملة ﴿ اصْبِرْ ﴾ ؛ لأنها مرتبة معها على ما تقدم من أول السورة. واختار فعل التسبيح الدال على التنزيه للإشارة إلى أن التكذيب بوقوع البعث يتنافى مع تنزيه صدق المولى عز وجل، أو للإشارة إلى قول اليهود (لعنهم الله) الذى يتنافى مع تنزيهه تعالى عن التشبيه.

فإذا كان المراد بالتسبيح الصلاة على ما قال ابن عطية وحكى الإجماع عليه (٢) كان وجه الربط «أن المشركين كانوا يستهزئون بالنبى ﷺ ، إذا قاموا إلى الصلاة».

والفاء فى جملة ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ جزائية والتقدير : مهما يكن من استهزاء المشركين فسبحه.

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ يرى ابن عطية أن استمع هنا بمعنى انتظر، يقول : «وذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن يستمع فى يوم النداء؛ لأن كل من فيه يستمع» (٣)

وأرى أن الفعل على معناه الأصلى حتى تتحقق المناسبة مع السياق كما يفهم من دلالة ذكر المنادى ، والصيحة ، يقول الآلوسى : «والظاهر أنه أريد

(١) الآلوسى : روح المعانى 14 : 290

(٢) ابن عطية : المحرر الوجيز 5 : 168

(٣) السابق : 5 : 169

حقيقته ، والمستَمع له محذوف لما أخبر من أهوال يوم القيامة ويبين ذلك بقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ (١)

يقول الشيخ ابن عاشور : «وابتداء الكلام باستمع يفيد تشويقا إلى ما يرد بعده» (٢) وحذف مفعول الفعل استمع للدلالة عليه بالصيحة فى الآية التالية، «وسلك هذا لما فى الإبهام ثم التفسير من التهويل والتعظيم لشأن المخبر به» (٣)

وحاول بعض المفسرين تحديد ذلك المكان فقال الزمخشرى: «صخرة بيت المقدس ، وهى أقرب الأرض من السماء باثنى (عشر ميلا ، وهى وسط الأرض)» (٤)

ورده المحققون بأنه لا دلالة عليه، ورجحوا أن المراد به مكان قريب ممن يناديهم. (٥)

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ الإشارة إلى يوم النداء والسماع أو إلى النداء ذاته.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ : فى هذه الجملة تصريح بالإحياء والإماتة للإنسان بعد الإشارة إليه بالإنبات فيما سبق من السورة؛ لأن الموقف هنا موقف معاينة لهذا البعث ، وكان قبل لإقامة الحجة على المنكرين عن طريق التمثيل.

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ تجىء هذه الجملة بيانا لجملة ﴿ ذَلِكَ

---

(١) الآلوسى : روح المعانى 14 : 291

(٢) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير 26 : 329

(٣) الآلوسى : روح المعانى 14 : 291

(٤) الزمخشرى : الكشاف 4 : 12

(٥) الآلوسى : روح المعانى 14 : 292

﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أو هى بدل اشتمال منها ، والأرجح عدها للبيان لأن فيه زيادة فائدة . وذهب الشيخ ابن عاشور إلى أنها استئناف .[١] ، والرأى الأول أولى؛ لأن الوجه الذى يتصل به الكلام أولى على ما عرفت.

﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ : الإشارة هنا إلى البعث ، وتقدم الجار والمجرور لاختصاص يسر الحشر به عز وجل، ويرى ابن عطية أن هذا التركيب معادل لقول الكفرة ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد﴾ فى أول السورة [٢].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ استئناف بيانى ناشئ عن قوله ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ بقصد تهديد المكذبين بالبعث، أو لليهود على ما مر بك.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّار﴾ : معطوفة على الجملة السابقة ، بغرض تطمين الرسول ﷺ بعد تهديد المكذبين.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أفادت الفاء ترتب الجملة على الجملة السابقة ؛ لأن أمره التذكير ناشئ عن نفى كونه جبارا عليهم. وقد اجتمع الأمران فى موضع آخر فى القرآن الكريم، وذلك قوله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية ٢١ ، ٢٢) لكنه خص هنا التذكير بمن يخاف الوعيد ليناسب ذلك ما سبق فى السورة من تقييد الذكرى بشروط ، يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾ .

وقد لاحظ الرازى التناسب بين افتتاح السورة واختتامها بقضية البعث ،

---

(١) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير 26 : 332

(٢) ابن عطية : المحرر الوجيز 5 : 170

فيقول : «ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر قال آخرها ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (١).

أضف إلى هذا وجهًا آخر من تناسب البدء والختام إذ تجيء خاتمة السورة ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ ﴾ مناسبة لفاتحتها ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ بما يدل على وحدة السورة.

أما ذكر القرآن فى البدء فكان بقصد التنويه بشأنه عن طريق القسم به، فى حين ورد الختام لبيان غرضه وهو تذكير من ينتفع به.

(١) الرازى : مفاتيح الغيب 28 : 126

الخاتمة

أولاً: يكشف البحث فى السياق القرآنى بعامة عن طائفة مهمة من النتائج منها:

(أ) أن ترتيب الجمل ، وانتظامها وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ينتمى إلى إعجاز القرآن بأسلوبه.

(ب) أن النظر فى سرد الجمل فى النص ورصد العلاقات السياقية بينها، غاية من غايات النحو.

(جـ) أن اتساق الكلام على سياق واحد أصل لا يعدل عنه إلا بدلالة واضحة على إرادة الانقطاع.

(د) الإضراب لا يعنى انقطاع النص بل هو تنبيه على بدء حديث كأنه جديد ، حسب تعبير الأستاذ سيد قطب.

(د) للسياق فى التراث العربى قيمة جليلة على مستوى بناء النص وتفسيره تتجلى فى أمور ، منها :

١ - تحديد معنى واحد من معانى اللفظ المشترك ، هو المعنى الأليق بالسياق (كى لا ينبتر الكلام، وينخرم النظام) على ما رأيت من حديث ابن عبد السلام.

٢ - تفسير ما أبهم من الضمائر.

٣ - تحديد المشار إليه باسم الإشارة.

٤ - تقدير العنصر المحذوف كلمة كان أم جملة، أم عدة جمل.

٥ - معرفة أغراض الأساليب.

(هـ) للسياق القرآنى مستويات متعددة بتعدد جهة النظر من غير تعارض بينها، على النحو التالى :

١ - السياق الداخلى ، وقد أطلق عليه علماؤنا مصطلح النظم ، وله صور:

- سياق النص القرآنى جميعا .
- سياق السورة.
- سياق الفقرة.
- سياق الآية.

٢ - السياق الخارجى ويشمل:

- القراءات القرآنية.
- السنة النبوية.
- أسباب النزول.

وقد وفق العلماء بين السياقين الداخلى والخارجى. فأولوهما عناية فائقة، وإن جعلوا قرينة الأول أقوى لأنه يقع بمجرده التبيين والتعيين، بخلاف الثانى. الذى لا يقوى منفردا على ذلك.

ثانيًا : أدى النظر النحوى فى سياق سورة (ق) إلى مجموعة ملاحظات مثل :

١ - السياق يحقق للسورة وحدتها؛ فالسورة الواحدة كلام واحد (نص واحد) باعتبار النظم الذى هو السياق على ما تبين من الحديث عن مفهوم السياق، ويتجلى هذا من خلال المحاور التالية:

- المناسبة الصوتية بين حرف التهجى وبناء السورة الوارد فى مستهلها من جهة ، واتساقه مع فواصلها من جهة أخرى.
- المناسبة بين الجمل ، والفقرات (المشاكلة)
- مناسبة أداة الربط للجملتين التى تربط بينهما.
- المناسبة بين فاتحة السورة وختامها.
- المناسبة بين القراءات المتعددة للآية.

٢ - للسياق أثر بارز فى تفسير النص وتبيينه ، ومن أمثلة ذلك:

- توضيح سر إيثار تركيب ما.

- تقدير المحذوف فى ضوء سياق السورة نفسها أولى .
- ترجيح الوجه الإعرابى المناسب لسياق السورة ومقصودها .

٣ - لا يجوز الاقتصار على غرض مراعاة الفاصلة ، بل يجب البحث عن دلالة معنوية متسقة مع السياق.

٤ - القلب النحوى (التبادل بين الوظائف النحوية) وسيلة نحوية تكشف عن علاقة حية بين الكلمات فى الجملة.

هذا إلى بعض النتائج الجزئية تحسن مطالعتها فى سياقها من البحث.

المصادر والمراجع

الآلوسى ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسى : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، دار الفكر - بيروت ١٩٩٤ م

الأخفش ، أبو الحسن سعيد بن مسعدة : معانى القرآن ، تحقيق الدكتورة هدى قراعة . مكتبة الخانجى - القاهرة ١٩٩٠

الأشمونى ، أحمد بن محمد عبد الكريم: منار الهدى فى بيان الوقف والابتدا . دار المصحف - دمشق

الأندلسى ، أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف : البحر المحيط فى علم التفسير ، طبعة السلطان عبد الحفيظ ١٣٢٨ هـ

أولمان ، ستيف أولمان : دور الكلمة فى اللغة ، ترجمة الدكتور محمد كمال بشر. مكتبة الشباب - القاهرة ١٩٨٦ م

البقاعى ، أبو الحسن إبرهيم بن عمر : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور . دار الكتاب الإسلامى - القاهرة ١٩٩٢ م

الجرجانى ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن : دلائل الإعجار ، تحقيق محمود محمد شاكر . مكتبة الخانجى - القاهرة ١٩٨٤ م

الجمل ، سليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية . دار إحياء الكتب العربية - القاهرة

ابن جنى، أبو الفتح عثمان بن جنى : الخصائص ، تحقيق محمد على النجار . الهيئة المصرية العامة ١٩٨٦ م

■ المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، تحقيق على النجدى ناصف وزميليه . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة ١٣٨٩ هـ

حسان ، الدكتور أبو هانئ تمام حسان : البيان فى روائع القرآن . عالم الكتب - القاهرة ١٩٩٣ م

حبلص ، الدكتور محمد حبلص : البحث الدلالى عند الأصوليين ١٩٩١ م

الحلبى ، شهاب الدين أحمد بن يوسف السمين: الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون ، تحقيق الدكتور أحمد الخراط. دار القلم - دمشق ١٩٨٦م

الدانى ، أبو عمرو عثمان بن سعيد : المكتفى فى الوقف والابتدا فى كتاب الله عز وجل، تحقيق الدكتور يوسف المرعشلى . مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م

الرازى ، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر : مفاتيح الغيب - المطبعة البهية المصرية

الزركشى ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر : البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار التراث - القاهرة

الزمخشرى ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل . مكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة

ابن السراج ، أبو بكر محمد بن السرى بن سهل ، الأصول فى النحو ، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلى . مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٨ م

سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان : الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة ١٩٨٦ م

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : الإتقان فى علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الهيئة المصرية العامة (١٩٩٠م)

الشاطبى ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى: الموافقات فى أصول الشريعة ، تحقيق عبد الله دراز . دار الكتب العلمية - بيروت (١٩٩١م)

الشنتمرى ، أبو الحجاج يوسف بن سليمان : تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب فى علم مجازات العرب (بهامش كتاب سيبويه) مطبعة بولاق ١٣١٦ هـ

الشوكانى ، محمد بن على : إرشاد الفحول لتحقيق الحق من علم الأصول . مكتبة عيسى الحلبى - القاهرة ١٣٢٥ هـ

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، (١-١٦) تحقيق محمود محمد شاكر . دار المعارف - مصر (١٩٥٤ - ١٩٦٩م) والجزء (٢٦) طبعة بولاق ١٣٢٣ هـ

ابن عاشور : الطاهر : تفسير التحرير والتنوير . الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م

ابن عبد السلام ، أبو محمد عز الدين : الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز. المطبعة العامرة - مصر ١٣١٣ هـ

■ الإمام فى بيان أدلة الأحكام، تحقيق رضوان مختار . دار البشائر الإسلامية ١٩٨٧م

ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق عبد السلام عبد الشافى . دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٣ م

العكبرى ، أبو البقاء محب الدين بن الحسين : التبيان فى إعراب القرآن ، تحقيق على البجاوى . دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٧٦م

عمر ، الدكتور أحمد مختار : معجم القراءات القرآنية (بالاشتراك مع الدكتور عبد العال سالم مكرم). مطبوعات جامعة الكويت ١٩٩٢ م

الفراء ، أبو زكريا يحيى بن زياد : معانى القرآن ، الجزء الثالث تحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبى . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٢م

الفيروز ابادى، مجد الدين محمد بن يعقوب : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق محمد على النجار . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٠ م

القاسمى ، محمد جمال الدين : محاسن التأويل ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . دار إحياء الكتب العربية - القاهرة

القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن . كتاب الشعب - القاهرة

قطب ، سيد قطب : فى ظلال القرآن . دار الشروق - القاهرة ١٩٨٦ م

ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبى بكر : الفوائد ، تحقيق أحمد راتب عرموش. دار النفائس ١٩٧٩م

ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل : تفسير القرآن العظيم .، المكتبة العصرية - بيروت ١٩٩٧ م

الكرمانى ، أبو القاسم برهان الدين : البرهان فى توجيه متشابه القرآن ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا . دار الاعتصام - القاهرة ١٩٧٧م

لاينز ، جون : اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة عباس صادق . دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٧٨ م

ابن معطى : يحيى بن عبد المعطى : الفصول الخمسون : تحقيق الدكتور محمود الطناحى ، مطبعة عيسى الحلبى - القاهرة ١٩٧٧ م

مكرم ، الدكتور عبد العال سالم : معجم القراءات القرآنية (بالاشتراك مع الدكتور أحمد مختار عمر) مطبوعات جامعة الكويت ١٩٩٢م

النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (بهامش الطبرى) طبعة بولاق.

ابن يعيش ، موفق الدين يعيش بن على : شرح المفصل إدارة الطباعة المنيرية- القاهرة.